

الزوايا المغربية في القرن 17/11 قراءة تركيبية

نفسية الذهبي

أستاذة التاريخ الحديث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي .

تقتضي صياغة موضوع يتعلق بالحركة الصوفية، وبدور مؤسسة "الزوايا" في تاريخ المغرب الحديث استحضار عدد من المعطيات أهمها:

1 - ملاحظة الخط التصاعدي للحركة الصوفية من ق 9هـ/15م إلى القرن 11هـ/17م، كما، ودورا، ومشاركة اجتماعية، وتأثيرا ...

2 - تطورت مؤسسة الزوايا بشكل فعلي عندما خاض رجالها في توجيه الرأي، وتحديد الدور المتمثل في المحافظة على وحدة البلاد وهيبته. ويظهر ذلك من خلال المشاركة في أخذ البيعة للسعديين، والمساندة الفعلية في تأطير الجهاد، وهو بناء جديد لتجاوز الدور التقليدي لهذه المؤسسة¹.

3 - بلوغ مستوى الطموح السياسي لسد الفراغ الذي نتج عن ضعف القيادة السعدية منذ بداية القرن 17م عندما دخل أرباب الزوايا مجال الصراع السياسي، ونظروا لمسألة المشروعية من زاوية عدم احترام مبدأ حماية دار الإسلام، والإخلال بإحدى قواعد الإمامة وهما سمتان اللتان وسم بهما أمر تسليم محمد الشيخ المامون مدينة العرائش للإسبان سنة 1019هـ/1610م.

وقد تعاملنا مع هذه الإشكالية، انطلاقا من سؤال مركزي حول الكيفية التي تفاعلت بها كل زاوية من الزوايا التي طبعت تاريخ القرن 17م مع الظرفية العامة ؟ وقبل محاولة رسم أبعاد هذه الإشكالية، لا بد أن ننطلق من الحديث عن الزاوية كفضاء لممارسة الدور الصوفي، فهي المكان الذي تنبثق منه تجربة تستمد بعدها الروحي من تجربة سابقة أو تمثل حلقة جديدة لنهج معين، ولكنها تتحد جميعا في القيام بأدوار التلقين والتربية وتنظيم العلاقات البشرية، كما تجمعها أبعاد التأثير في حياة الأفراد اليومية. وإذا كانت شعاراتها حاملة لنفس الأهداف، فإنها لا تمثل بالضرورة نفس التوجهات، إذ يبقى لكل شيخ أسلوبه في التربية، ودوره في التأثير داخل محيطه الحضري أو البدوي. لكننا - مع ذلك - يمكن أن نوحّد الرؤية حول ما هو عام ومميز لأدوار مؤسسة الزاوية ولمنطلق عمقها الاجتماعي.

¹ - تزعمت الحركة الصوفية الجزولية تنظيم بيعة الشرفاء السعديين، وأيدت سلاطينهم بشكل فعلي وإن اختلفت العلاقات بينهم وبين هذه القوة الشعبية التي ساندتهم حسب متطلبات المصالح السياسية للدولة، فإن المؤكد هو تأثير الحركة في مرحلة التأسيس ودورها في التعبئة الشعبية منذ البداية إلى جانب المشاركة الفعلية في معركة وادي المخازن.

ولا بد أن نحدد الزوايا التي يشملها حديثنا، لكي نعمل على إيجاد بعض الإجابات أو التوضيحات بخصوص السؤال الأساسي المطروح، وإن كنا في الواقع ننتقل من تعيين المهم منها، ونختار نماذج بشكل معياري نعتد فيه على قراءة خاصة بتمثل الأدوار البارزة في تاريخها. وسبب هذا التحديد، هو أن الفترة المعنية بالدراسة شهدت انتشارا واسعا لظاهرة الزوايا أصولا وفروعا، ويتضح ذلك من إلقاء نظرة على خارطة توزيع هذا المؤسس المقدس. فقد عرفت الزوايا الشاذلية النهج بأسانيد جزولية أو جزولية زروقية، حضورا كميا، جعل كتب المناقب تصف المرحلة بعصر التصوف. وعند استعراض النماذج المقصودة، نلاحظ أن أغلبها أنشئ في القرن 16م، أما القرن 17م فكان حاسما في إبراز نوع التطور الذي ميز بعضها سياسيا أو فكريا.

1 - الزاوية السملالية أو زاوية الشيخ أحمد بن موسى الذي عاش من النصف الثاني من القرن 9هـ/15م (853 - 1460م/971-1564م) إلى النصف الأول من القرن 10هـ/16م وأسس أول زاوية بتازروالت سنة 1520 - 1521م قبل أن تتحول مع حفيده بومديعة إلى إمارة في القرن 17م¹.

2 - الزاوية الشرقاوية أو زاوية أبي الجعد التي بدأت نواتها الأولى في دير تادلة في بداية النصف الثاني من القرن 10هـ (1554م - 1557م / 960 - 964هـ). وتأسس مركزها الأول في أبي الجعد في نفس المرحلة، بينما يعود بناء المركز الثاني إلى مستهل القرن 17م (1008 - 1009هـ/1599 - 1600م) وذلك قبل وفاة مؤسسها أبي عبيد محمد الشرقي بن أبي القاسم الزعري الجابري سنة 1010هـ/1601م².

3 - الزاوية الناصرية أو زاوية تمكروت التي تأسست منذ نهاية القرن 16م (983هـ/1576م)، على يد الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد الأنصاري (938هـ/75 - 1576م)، وواصلت نشاطها أيام حفيده أحمد بن إبراهيم الأنصاري، لكن الحديث عنها بنسبتها الناصرية مع رئاسة الشيخ محمد بن ناصر الدرعي منذ سنة 1052هـ/1642م هو حديث عن أهم مراحل تاريخها؛ بنشاطها العلمي وقوتها المعنوية والمادية، وازدياد فروعها في عدة مناطق من المغرب³.

4 - الزاوية الدلائية أو البكرية حوالي سنة 974هـ/1566م على يد الشيخ أبي بكر بن سعيد الصنهاجي المجاطي بالدلاء⁴.

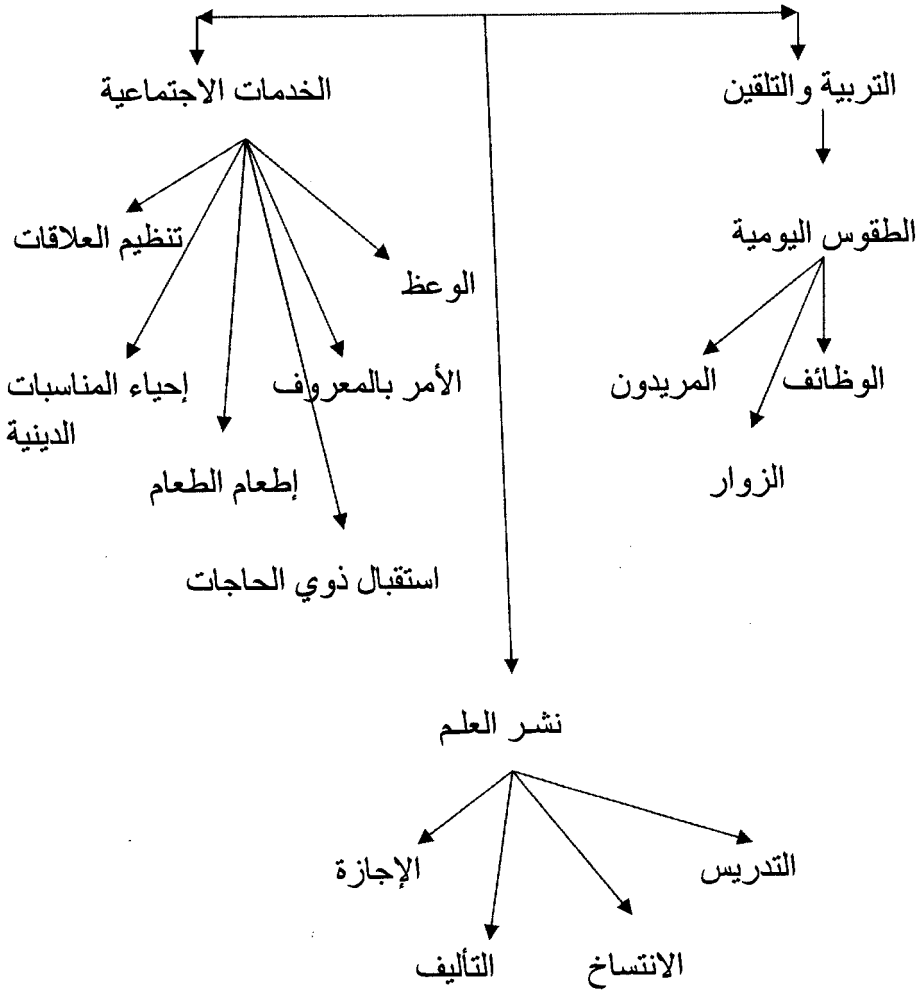
¹ - أنظر حول تاريخ تأسيس هذه الزاوية دراسة خ. الراجي، مساهمة في دراسة تاريخ الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، د.دع، الرباط، 1993.

² - أنظر حول مراحل تطور هذه الزاوية: أ. بوكاري، الزاوية الشرقاوية زاوية أبي الجعد ودورها الاجتماعي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، في جزءين.

³ - أنظر تفاصيل عن هذه الزاوية عند أ. عمالك، الزاوية الناصرية ودورها الاجتماعي والسياسي من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1052 - 1325 / 1642 - 1907)، الرباط، 2001.

⁴ - يمكن الرجوع إلى الدراسة المستوفية التي أنجزها الدكتور محمد حجي حول هذه الزاوية.

الزاوية



اللوحة رقم 1: السلطة الدينية والتأثير الفكري

5 - الزاوية الفاسية أو زاوية سيدي عبد القادر الفاسي كما تعرف اليوم، تأسس مركزها الأول في حي المخفية من عدوة فاس الأندلس على يد الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي سنة 989هـ/1581م، بينما أنشأ أخوه عبد الرحمان بن محمد الفاسي (العارف) المركز الثاني بحي القلقلين من عدوة فاس القرويين سنة 1027هـ/1617م. وهي من الزوايا المغربية التي كان لها تأثير علمي واجتماعي واضح. أما من الناحية السياسية فيبدو حضورها القوي من خلال مجموعة من المؤشرات، أهمها التوفيق بين مساهمة الرأي العام في فاس، والمحافظة على العلاقة المخزنية، وبذلك احتلت مكانة الصدارة في سلم التراتبية الصوفية خلال العصر العلوي الأول¹.

6 - زاوية المخفية أو زاوية الشيخ محمد بن عبد الله معن الأندلسي، تأسست فعليا سنة 1038هـ/1640م، وكان شيخها من أكبر مريدي الزاوية الفاسية، وقد ورث الطريقة والنهج بعده كل من الشيخ قاسم الخصاصي الأندلسي (ت. 1083هـ/1673م) ثم بعده أحمد بن محمد بن عبد الله معن أي أن شؤونها عادت إلى آل معن بعد وفاة الشيخ الخصاصي. وهي من الزوايا التي ساهمت في تنشيط الحياة الفكرية والروحية خلال هذا القرن في فاس ونسجل في هذا السياق، أنها تجتمع مع الزاوية الفاسية في علاقات متعددة أهمها علاقة الاستمداد والسند. وبواسطتها، تتصل حلقات أسانيد الطرق الصوفية اللاحقة بالفاسيين. وقد كانت لها كسابقتها مكانة خاصة عند رجال المخزن.

7 - الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم. تأسست على يد الشيخ محمد ابن أبي بكر العياشي سنة 1044هـ/1635-34م، وكان الشيخ من أكبر مريدي الزاوية الدلانية. وبإشارة من شيوخها قام بتأسيس زاويته التي اجتمعت حولها قبائل الأطلس الكبير الشرقي في هذه المرحلة. وقد اعتبرت الزاوية العياشية امتدادا للزاوية الدلانية وضمن عصبيتها القبلية، لذلك عاش رجالها الأزمة السياسية التي عصفت بزاويتهم على يد السلطان المولى الرشيد العلوي. فقد كان قراره هو تهجيرهم إلى مدينة فاس حيث قضوا سنة كاملة من المعاناة لكنهم تجاوزوا هذه الأزمة بعد أن اتضح موقفهم².

وإلى جانب هذه المؤسسات، هناك زوايا قديمة تجددت شعاراتها وتأطيرها الشعبي خلال هذا القرن مثل زاوية آل حنصال³، والزاوية العيساوية¹

¹ - بخصوص هذه المرحلة من تاريخ الزاوية يمكن الرجوع إلى عملنا حول الزاوية الفاسية التطور والأدوار، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.

² - يمكن الوقوف على بعض الجوانب من إشعاع هذه الزاوية وتاريخها من خلال عملنا: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فهرس ابن سالم العياشي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996.

³ - يرجع تاريخ زاوية أحنصال إلى بداية القرن 7هـ/13م، أسسها الشيخ سعيد أحنصال - الشهير بسعيد الكبير - قرب مدينة بني ملال. وكانت طريقته صالحة وعرف بصحبته للشيخ أبي محمد

وغيرها من الزوايا التي لم نقحمها في حديثنا في هذا العرض. كما أننا نتعرض إلى جانب الزوايا لبعض الحركات التي قامت باسم الجهاد من منطلقات دينية صوفية ونركز هنا على ثورة ابن أبي محلي، ويحيى الحاحي، والمجاهد العياشي كما نأخذ من بين الزوايا المشار إليها، ما ينسجم مع رؤية التحول الأفقي، والدخول في الهياكل المتصارعة من أجل السلطة، لنترك جانب القراءة الخاص بالجانب الطرقي والأدوار الدينية والعلمية كإطار آخر لدراسة مستقلة.

كيف تفاعلت الزوايا مع ظرفية القرن 17م ؟

بعد الاستقرار السياسي الذي حققه السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي باعتماد نظام اقتصادي محكم مرتكز على التجارة الخارجية، نلاحظ أن هذا التوجه كان من أسباب التغيير الذي شهده المغرب مع مطلع ق 17م، إذ كان الارتباط بالتجارة الخارجية قد أخضع المغرب لمتغيرات ظرفية السوق الأوروبية. فبعد أن كانت الموانئ المغربية تزود التجار من فرنسا، وإيطاليا، وانجلترا بالمواد الإفريقية (الذهب – النحاس – السكر – ملح البارود ...)، ظهرت المنافسة البرتغالية من أجل إلغاء الوساطة المغربية التركية التي دفعت إلى تحويل الخط التجاري الصحراوي نحو الشرق إلى جانب انعدام السلطة القوية بعد قيام الصراع بين أبناء المنصور. وبعد تفكك مركزية الحكم، وظهور مملكتي فاس ومراكش، وإذا أضفنا إلى ذلك الخطأ السياسي الذي ارتكبه محمد الشيخ المامون بتسليم مدينة العرائش للإسبان، ثم مواجهة السعديين لمقاومة القبائل الزنجية في السودان، وضعف العائدات، فإننا نستحضر بدون

صالح الماجري دفين أسفي. انقسمت الزاوية الحنصالية عبر تاريخها إلى ثلاثة فروع أكثرها نشاطا، في المرحلة التي نعني بها، هو الذي ترأسه الشيخ أحنصال سعيد بن يوسف الذي أكدت علاقته بالدلانيين، وبعدد واسع من الصوفية والزوايا وخاصة الناصريين بعد سياحته الطويلة. وقد أسس الزاوية الجديدة بأغبالو – غربي وزغت – خلال القرن 17م. أما خلال القرن الموالي، فستعيش الزاوية ظرفية حرجة أنظر مادة أحنصال في معلمة المغرب، المجلد الأول، ص183 وما بعدها.

1 - الزاوية العيساوية أو زاوية الشيخ محمد بن عيسى (الكامل) من أشهر زوايا مدينة مكناس. يرجع تاريخ تأسيسها إلى أوائل القرن 10هـ/16م إبان مرحلة الصراع الوطاسي السعدي، وهي زاوية جزولية بأسانيد مباشرة عن الشيخين عبد العزيز التباع وأحمد الحارثي. تقف المصادر عند ذكر سيرة الشيخ المؤسس إلى حدود وفاته سنة 933هـ/1530م، فنذكر اشتغاله بالتدريس والوعظ وطريقته الصوفية الجزولية السنية قبل أن تنتقل إلى وصف مرحلة القرن 17م التي تحولت الطائفة العيساوية خلالها إلى مواسم واجتماعات تمارس فيها مجموعة من الطقوس الغريبة) وهي طقوس وصفها الشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي في ابتهاج القلوب بنوع من الزندقة. أنظر ما يهم الطريقة ومصادر تناولها ضمن دراسة عبد العزيز عمري: الزاوية العيساوية ودورها الاجتماعي والروحي والسياسي من القرن 10 إلى 13هـ/16 - 19م، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، سايس، فاس، 2003.

شك المعارضة الشديدة التي بدأت تظهر في الأقاليم ومنها معارضة تحمل النفس الصوفي. ومن أبرزها:

* حركة ابن أبي محلي التي انطلقت من الساوره في سنة 1610م¹ كرد فعل ضد الانحراف. وكان منطلق ابن أبي محلي، هو إيديولوجية المهديوية فقد نادى بالخلافة الإسلامية، وادعى النسب العباسي، وأشار إلى أن المهدي ربما يكون من ذرية العباس. وقد أثرت دعوته ولو إلى حين، واستطاع أن ينتصر على القوات السعدية في أول لقاء بسجلماسة في ربيع عام 1611م ومن ثم أصبح يراقب الطريق التجاري بين فاس والسودان. وقد بلغت حركته منطقة درعة في مرحلة ثانية، وكانت سيطرته على لكتاوة حيث ضرب النقود باسمه، وجمع القوات التي نجحت في اقتحام مراكش ودخول قصر البديع مما جعل السلطان زيدان السعدي يستصرخ بأبي زكرياء الحاحي² من سوس ليتم القضاء على ثورة ابن أبي محلي في معركة جيليز سنة 1022هـ.

في هذا السياق تجدر الإشارة إلى ذكر المحاولة التي قادها الحاحي بدوره فقد خاض من تارودانت في محاولة ثورية دامت 13 سنة وهي المحاولة التي انتهت على يد رئيس زاوية إيلينج أبي حسون السملالي سنة 1053هـ.

* حركة المجاهد العياشي في منطقة الغرب، انطلقت منذ سنة 1621م³

¹ - الفقيه الثائر أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي ولد ونشأ في سجلماسة ثم كانت له مرحلة إقامة في فاس من سنة 980 إلى 1572/986-1578 حيث تعلم على شيوخ المرحلة. وتبدأ سمات الانعزال والنزعة الصوفية عند ابن محلي في المرحلة الثالثة من حياته عندما أقام - قبل معركة وادي المخازن - عند شيخه محمد بن مبارك الزعري ليعود إلى سجلماسة ويستقر في الساوره من 1002 إلى 1019هـ/1594-1610م. أما المرحلة الرابعة من حياته فهي مرحلة دخوله الصراع مع الشيخ عبد القادر بوسماحة من 1012 إلى 1019 وهو صراع عكس تكوين الرجلين ونظرتهم للأمور الدينية والعامة. وقد رأى ابن أبي محلي في قيامه على المخزن السعدي حاجة الأمة إلى إمام. وكانت المسوغات التي اعتمدها هي أن التطاحن بين الملوك وتعددهم يدعو إلى القيام عليهم خاصة وأنهم تخلوا عن الجهاد وسلموا مدينة العرائش للإسبان. أنظر دراسة ع. القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر، منشورات عطا، 1991.

² - أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت. سنة 1035هـ) الذي قضى بمحاولاته الرئاسية على مجد ديني وعلمي لأسرة شريفة إدرسية النسب شهيرة الذكر في منطقة سوس. أنظر حول حركته: م. اليفرنى، نزهة...، تحقيق ع. الشاذلي، ص. 306 وما بعدها؛ م. السوسي، المعسول، ط. 1، 1998، ج. 19، من ص 73؛ إيلينج قديما وحديثا، المطبعة الملكية، 1966، ص. 16، 52، 53.

³ - محمد بن أحمد المالكي الزياني السلاوي، أصله من قبيلة بني مالك من العرب الهلالية المستوطنة في بلاد الغرب. كان من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي شجعه وأشار عليه بالجهاد فبدأ بنوع من التطوع وجمع المجاهدين لمقاتلة البرتغاليين في الجديدة. لكن نجاح البرتغاليين في الوصول إلى حاشية السلطان زيدان وتأليبهم عليه جعله يتعرض لمحاولة انتقام نجا منها ليصل إلى سلا عام

وزادت قوتها بعد عودته من دكالة حيث وصل نفوذه إلى الشمال وإلى مدينة فاس. وإلى حدود تاريخ طلب أهل فاس لهذه الحماية، فإن علاقته كانت طيبة وممتينة بالشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الذي أيد خطته وراسله، وندب القبائل لمؤازرته، وكان يبعث إليه بالمقاتلين عند الحاجة ويقدم له الإعانات المادية. وقد بلغت درجة اقتناع الدلائيين بحركته وشخصه أن كان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي يدعو له دعاء خاصا مع أوراده¹.

وقد استمرت هذه العلاقة الودية في أيام محمد الحاج الذي قاد بنفسه حملة لنجدة العياشي، والقضاء على فتنة الحياينة والشرافة بعد أن تكررت غاراتهم على مدينة فاس. غير أن الصفاء بين الطرفين لم يدم طويلا لأن طموح محمد الحاج جعله يصل إلى الثغور والمراكز التي دخلت في نفوذ العياشي، وقد بدأت الخلافات بين الطرفين حول مجموعة من المصالح والأموار، لكن أبرز حدث فجر تلك الخلافات تمثل في اعتراض الدلائيين على سلوك العياشي، وعلى موقفه المتشدد من الأندلسيين في قضية الرباط فقد حاصرهم، وهدر دمهم، وأباح أموالهم وبذلك بلغ الأمر بينهما إلى حد المواجهة أكثر من مرة في أواخر سنة 1050هـ/1641م. وقد انتهت الحركة بقتل المجاهد العياشي على يد جماعة من الخلط في 9 محرم 1051هـ/21 أبريل 1641م.

* الزاوية الدلائية²:

من أشهر الزوايا التي خاضت في أمور السياسة خلال القرن 17م مع رئاسة محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي، الذي حظي بالبيعة سنة 1061هـ/1651م وأهمها بيعة أهل فاس التي كتبت في القرويين، وحضرها أعيان المدينة. وقد أسس محمد الحاج الزاوية الدلائية الحديثة³، كما أسس عاصمة وقصرا، وكل ما يدل على

1023هـ/14-1615م وهي المرحلة التي احتل فيها الإسبان ثغر المعمورة ولم ينهض السلطان لمقاتلتهم رغم نداءات الاستنجاد بل تشير المصادر إلى قبوله لهدية من النصارى بالمقابل. من هنا قام العياشي بحركة قوية للجهاد وامتد نفوذه إلى أقاليم الشمال ووصل إلى حد حماية فاس من هجمات الحياينة والشرافة. أنظر حول تفاصيل الحركة: ع. الشاذلي، الحركة العياشية، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1982.

¹ - الناصري، الاستقصا، ج. 6، ص. 91.

² - أسسها الشيخ أبو بكر بن محمد بن سعيد الصنهاجي المجاطي بإشارة من شيخه أبي عمرو القسطلبي حوالي سنة 974هـ/1566م وقد مثلت منذ نشأتها مركزا دينيا وعلميا ازداد إشعاعه ودوره في الأطلس المتوسط، وكانت الزاوية تستقبل المريدين، والطلبة، والفقراء، والوافدين ولم تخرج عن نهجها أيام الشيخين أبي بكر وابنه محمد غير أن رئاسة محمد الحاج وهو أكبر أبناء محمد بن أبي بكر كانت تمثل نزوعا واضحا للسياسة والاستقلال بأمور الحكم بعد أن تأكد ضعف النفوذ السعدي واستبد عدد من الثوار بالمناطق المغربية.

³ - هي التي تقوم على أنقاضها حاليا زاوية آيت إسحاق في الطريق بين خنيفرة وقصبة تادلة. م.

الرئاسة الدنيوية. وبدأ في قيادة الجيش والقبائل كما بدأ يحقق الانتصارات انطلاقاً من حملته الأولى عندما التقى بقوات محمد الشيخ المامون السعدي عند أبي عقبة، وفي الحملة الثانية عندما هب لنجدة المجاهد العياشي لصد هجمات الحيانية وشرافة المغيرين على فاس ثم واجه شرفاء سجلماسة، وزحف في جيش جرار على تافيلالت أوائل عام 1056هـ / 1646م، فكانت بينه وبين مولاي محمد العلوي وقعة القاعة المشهورة التي اشتهر فيها الدلاينيون ودخل محمد الحاج إلى سجلماسة وأباحها للبربر، ثم تصالح الطرفان على اقتسام مناطق النفوذ¹ مع احتفاظ الدلايين بخمسة مواقع في المنطقة الخاضعة للشرفاء اعتباراً لأهميتها وموقعها الحيوي. لكن مولاي محمد، هاجمها واستولى عليها بعد أن تنازل له والده عن البيعة. ومن هذا المستوى، بدأ الحديث عن التوتر في العلاقة بين الطرفين إلى أن انتهى الأمر بنجاح المولى الرشيد بن الشريف في القضاء على الزاوية، ودحر رجالها في معركة سهل بطن الرمان عام 1079هـ / 1668م، وأمر بهدمها وترحيل أهلها إلى فاس².

وفي ظل المعاناة الدلانية، يمكن الحديث عن الزاوية العياشية التي مال رجالها إلى المحافظة على الدور الديني والعلمي وأكدوا عدم انخراطهم في السياسة، وهو ما سمح بعودتهم في بداية عهد المولى إسماعيل سنة 1083هـ/1672م بعد أن قضوا سنة من الغربة والمعاناة في فاس التي أمرهم المولى الرشيد بالانتقال إليها. وموقف المولى الرشيد المتشدد من العياشين، يدل على أن هذه الزاوية كانت تدخل في دائرة العصية الدلانية، وفي دائرة المراقبة، وأنها مثلت إحدى زوايا القرن 17م التي عانى أهلها من الصراعات السياسية.

حجي، الزاوية الدلانية.

¹ - تم الاتفاق على اعتبار ما دون جبل العياشي من الأقاليم الصحراوية من نصيب المولى محمد بن الشريف وما فوقها من البلاد خاصاً بالدلايين. واستثنى محمد الحاج من منطقة نفوذ الشرفاء خمسة مراكز هي الشيخ مغفر في أولاد عيسى بالرتب (على الضفة الغربية لوادي زيز)، والسيد الطيب في قصر السوق، والسيد أحمد بن علي العثماني في بني عثمان من الخنق (وهو عبارة عن عدة قصور تقع على نحو 27 كلم شمال قصر السوق)، وقصر كلميمة في وطن غريس (غرب قصر السوق على طريق ورزازات وهي اليوم ضمن أراضي بربر آيت مرغاد)، وقصر أسيرير في بلد فركلة (على ضفاف وادي فركلة غرب قصر السوق على بعد حوالي 86 كلم).

² - عفا المولى الرشيد بعد ذلك على الدلايين وسمح لهم بالإقامة في فاس ما عدا محمد الحاج وبنيه فإنه أمرهم بالهجرة إلى الجزائر حيث انتقلوا إلى تلمسان عام 1080هـ/1669م ونزلوا بحرم العباد وبها توفي محمد الحاج عام 1082هـ / 1671م. وستكون آخر محاولة ثورية هي التي قادها حفيده أحمد بن عبد الله الدلاني - الذي وصفته المصادر بالشجاعة والإقدام - بمساعدة أتراك الجزائر وذلك سنة 1088هـ / 1677م فقد عاد إلى الدلاء وألف حوله برابرة الأطلس المتوسط لكن المولى إسماعيل تمكن من القضاء على آخر ثورة دلانية سنة 1089هـ/30 مارس 1678م. أنظر: أ. ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 6، ص. 34.

* الزاوية السملالية في إيليج¹:

يعود تاريخ الزاوية إلى حركة الشيخ أحمد أموسى البومرواني السملالي السوسي منذ نهاية القرن 9هـ/15م. تحولت هذه الحركة والزاوية إلى إمارة بلغت من الاتساع والقوة ما جعلها أكبر قوة سياسية صوفية. امتد عمر هذه الإمارة مدة ستين سنة كاملة تعاقب خلالها أربعة من الأمراء أولهم إبراهيم بن محمد بن الشيخ أحمد أموسى وهو أول من تصدى للإمارة وأعلن الثورة بسوس، عمل السلطان زيدان على مواجهته. لكن طموح الإمارة السياسي ظل حاضرا وإن كانت الأخبار شحيحة حول مرحلة الحسن بن علي بن الشيخ، فإنها تتضح أكثر مع ذكر سيرة علي بن محمد بن محمد بن الشيخ الذي تميز نشاطه منذ بداية العقد الثالث من القرن، واستطاع أن يطور الإمارة ويؤسس عاصمتها². وصفت المصادر شخصيته بالقوة والعظمة، ويمكن اعتبار أسباب هذا البروز ضمن القوة المجالية والاقتصادية التي تحققت للإمارة. فقد اعتمد على عائدات الخط التجاري الساحلي، ونجح في مراقبة المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة يحيى الحاحي ثم تمكن من الاستيلاء على درعة وسجلماصة وهي المناطق التي خاض فيها صراعات طويلة الأمد مع الشرفاء العلويين منذ عام 1040هـ/1630م³ إلى أن انهزم في درعة مرتين بعد سنة 1051هـ/1641م بقليل، ولم تذكر له مواجهة أخرى إلى أن توفي عام 1069هـ/58-1659م أي قبل تحطيم عاصمته بحوالي أحد عشرة سنة⁴.

¹ - نسبة لقبيلة إذا وسملال وهي قبيلة الشيخ أحمد أموسى الذي ولد سنة 853هـ/1460م ببومروان وتحول بعد مرحلة من الرعونة واللهو في صباه إلى حالة من الذهول والاستغراق التام والإقبال على السياحة. وقد أخذ عن الشيخين عبد العزيز التبايع وأحمد الراشدي الملياني وركز في طريقته الصوفية على الإكثار من الصلاة على النبي. وبعد أن تكاثر أتباعه ببومروان انتقل إلى تزرwalt وخاصة شطرها الشرقي الذي توجد به زاوية إماماد بن موسى وإيليج. وقد خلف الشيخ خمسة ذكور وهم: عبد الله ومحمد وعلي والحسن وعبد الباقي، وكان المتطلعون للسلطة من أحفاده من أبناء كل من محمد وعلي.

م. الإفرائي، نزهة...، ص. 407 وما بعدها؛ م. المختار السوسي، إيليج قديما وحديثا.

² - قال محمد المختار السوسي: "إنه أعظم رجل من "ملوك الطوائف" وأنه لم يكن بالمقدام وإلا لأمكنه اقتحام البلاط السعدي". إيليج، ص. 42.

³ - كان صراع العلويين مع أهل حصن تابوعصامت قد دفع كل طرف للتحالف مع القوات المحلية فاستعان المولى الشريف بأهل إيليج بينما تدخل الدلايون لنصرة الزبيريين أهل تابوعصامت ثم ساءت العلاقة بين بودميعة ومولاي الشريف نظرا لصعوبة المرحلة وكثرة المناوءات حتى احتال على المولى الشريف وأسره ووجهه إلى إيليج إلى أن افتداه ولده مولاي محمد وخلصه من الأسر، واستطاع أن يخلص تافيلالت من السوسيين، ويهزم أبا حسون في درعة.

⁴ - شرع علي بوحسون المعروف أيضا ببودميعة وصاحب الساحل في بناء العاصمة إيليج سنة 1021هـ وسكنها سنة 1031هـ ثم تمت توسعتها وقد استخدم في البناء عددا من الأسرى الأوروبيين فجاءت مدينة جامعة لجمال العمارة ومئاته التحصين إلى جانب أهمية الموقع والتحكم في الخط

أما رابع أمراء الأسرة فهو محمد بن علي بن محمد الذي خلف والده وانهزم أمام قوات السلطان المولى رشيد.

محاولة قراءة تركيبيه لهذا الواقع

نقصد بالتركيب في هذا السياق المقاربة الزمنية وذلك من خلال نظرة أفقية نحاول أن ننفذ من خلالها إلى استغلال أهم الاستنتاجات، وتقديم أهم ما بدا لنا من ملاحظات بخصوص الحركة الصوفية التي تزعمتها الزوايا المغربية والتي تجاوزت الدور الروحي والنظري والتربوي إلى الفعل السياسي والتأثير الاجتماعي العميقين، ونذكر من الاستنتاجات ما يأتي:

* طبعت الزوايا التاريخ الحديث بشكل لافت للنظر فمئذ نهاية القرن 15م ومستهل القرن 16م، نلاحظ مشاركة قوية للحركة الصوفية في تنظيم أمور الجهاد والدفاع عن وحدة البلاد لكنها من هذا المنطلق، أصبحت في دائرة المراقبة المخزنية فتعرضت في منتصف نفس القرن للمراقبة والامتحان، لينتهي القرن بصفحة من تأكيد الولاء والمحافظة على مظاهر الانسجام التي تتطلبها مصالح السلطة الزمنية.

* تدخلت الزوايا منذ مستهل القرن 17م في أمور الجهاد لكن ليس ضد الأجنبي المحتل فقط بل أيضا ضد الفراغ والفتن، ومن أجل حماية المناطق البعيدة والهامشية التي لم يعد يصلها نفوذ المخزن السعدي بعد أن أفل نجمه وتراجع دوره السياسي. وفي ظل هذه الظرفية نشأت زعامات صوفية ثورية ترأست حلقات من المواجهات التي تمت في إطار صوفي حيناً؛ ابن أبي محلي والحاخي، الحاحي وبودميعة، وبودميعة ومحمد الحاج الدلائي... الخ، أو في إطار صوفي مخزني؛ فالسلطان زيدان السعدي، واجه حركة ابن أبي محلي (استغلال حركة صوفية لمواجهة حركة صوفية)، والسلطان مولاي محمد وقف أمام كل من بودميعة ومحمد الحاج؛ وتابع المولى الرشيد تصفية الأطماع السياسية لرجال الزوايا بشكل حاسم. بينما تصدى المولى إسماعيل لآخر أنصار العصية الدلائية في الأطلس المتوسط. وقد كان للأخوين موقف واضح بخصوص إنهاء هذا المخاض السياسي الصوفي الثوري، باعتقاد أسلوب الامتحان والتخريب والتغريب. أما الأسلوب الذي اعتمد في نهاية القرن، فتمثل في مراقبة الزوايا والسعي إلى التدجين والسخرة؛ فهناك استقلال ممنوح ولكنه مقترن ببند جديدة للمشروعية متمثلة في إيجاد حدود للتوافق غالباً ما تتجلى في منح الظهائر السلطانية وتقديم الهبات؛ ومقابل ذلك اعتمدت أساليب الولاء التي تمثلت في العمل بالتقية الدينية والدعوة للطاعة.

* انخرطت الزوايا في كل أشكال التعبئة الاجتماعية بمحاربتها للفقير، والجوع، والمرض، والجهل، والظلم، فكانت بذلك نواة لتنظيم الأتباع ومن خلالهم

المجتمع.

* لم يختلف طابع النزعة الجهادية في تاريخ الزوايا المغربية، ويمكن ملاحظة ذلك من قراءة المشروع الجزولي الأول الذي قام على أساس تجنيد أكبر عدد من الأتباع من أجل الجهاد والدعوة إلى الوحدة¹. كما أنه مشروع دلت عليه الأحداث اللاحقة عندما أصبحت الزوايا سريعة التكيف مع الظروف، ولذلك وجدناها تتحمل أعباء الزعامة السياسية عندما فقدت الثقة في الزعماء، وهو ما يتناسب مع قراءة تطورات ومتغيرات هذا القرن.

* اختلفت الزوايا باختلاف المحيط البشري الذي وجدت فيه، كما اختلفت باختلاف نهج زعمائها، وباختلاف عصبيتها القبلية. ويمكن أن نمثل هنا بالعصبية الدلائية في قبائل الأطلس المتوسط التي ظلت جذوتها ملتزمة قائمة، فما كاد أحمد بن عبد الله الدلاء يرجع من تلمسان بعد أن عفا المولى إسماعيل عن الدلائيين حتى قامت ثورة قوية بتأييد قبلي صارخ جعلها ترتب في خانة الثورات الكبيرة التي واجهها المولى إسماعيل وتطلبت منه الإعداد والعدة والحملات المتكررة، وكانت آخرها الحملة التي قادها بنفسه وانتهت بإخمادها سنة 1089هـ/1678م.

* خدمت الزوايا المجتمعات القبلية في المناطق البدوية والنائية، كما خدمت المجتمعات الحضرية وإن كانت لكل مجال سلطته المعنوية وخصوصيته، لذلك تباينت أساليب عملها ومؤشرات علاقاتها المخزنية. وحتى إذا سلمنا بمحدودية الخدمات المقدمة والأساليب المعمول بها، فإننا لا نغفل أهميتها الدينية والدينيوية في حياة الناس.

* خضعت الزوايا للمراقبة بشكل أو بآخر لأن حضورها القوي في المجتمع جعلها ملاذا في أوقات الشدة؛ وقصدها طلاب الشفاعة والأمن والاحتماء. وهذا العنصر الأخير، حتم على المخزن مراقبتها. وقد تكون المراقبة وردود الفعل صارمة أحيانا بخصوص بعضها، لأن التقديرات المخزنية تختلف، فعندما تكون مسوغات الاحتماء بالزوايا مشروعة وموافقة لشرع الله، نجد الاستجابة والصفح، لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الأمر بما يعتبر مخالفة لشرع الله، فمن يلجأ إلى هذا المكان المقدس يجب أن لا يكون خارجا عن النظام العام وعن شرع الله الذي هو أساس الاحتماء. وتصدق نفس القراءة على حدود نشاط الزوايا ونوع تأثيرها في الرأي العام. ونخلص إلى القول، بأن استنتاجات هذه النظرة التركيبية تتجلى في تأكيد قوة التأثير الاجتماعي والفكري لمؤسسة "الزاوية" دون أن نغفل خصوصية الظرفية الزمنية وما يمكن أن تضفيه الدراسات الجامعية مستقبلا.

¹ - كما نستنتج من بعض الأبحاث الجامعية، أنظر دراسة عبد الله نجمي، بين زروق ولوثر: في الإصلاح الديني والعصور الحديثة، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997، ص. 77 وما بعدها.